إيان لوستك *

خداع التاريخ ووعد المستقبل**

في هذا الكتاب (تهاوي البراديغما– من حل الدولتين إلى واقع الدولة الواحدة) رأينا مرّة تلو الأخرى كيف تتبدّل الخطط والمشاريع السياسيّة بسبب قانون العواقب غير المقصودة. أرغمت الإستراتيجيّة المستميتة المسمّاة «الجدار الحديديّ للصهيونيّة» العرب على تخفيف مطالبهم، إلّا أنه كان للنجاح الجزئيّ لهذه الإستراتيجيّة عواقب غير مقصودة. ضخّمت هذه الإستراتيجيّة المطالب اليهوديّة–الإسرائيليّة، كما شجّعت تطرّفًا متعنّتًا دمّر كلّ إمكانيّة لتسوية تاريخيّة كان من المفروض أن تحقّقها. إضافةً إلى ذلك، كان صعود «الهولوكوستيا» (Holocaustia) في الثقافة السياسيّة في إسرائيل نتيجةً غير مقصودة للمنافسة بين الذاكرة الجماعيّة المتخاصمة للطرفين، فمنظور الكارثة، الذي أصبح مهيمنًا في إسرائيل، قوّض السلام مع العرب لأنّه شحذ إحساس الخوف والشك والكراهيّة، وجعل من «التسوية» كلمة نابية. نتجت الجهود الناجعة التي أحرزها لوبي إسرائيل في الولايات المتّحدة، والتي غذّاها منظور الكارثة بشكلٍ جزئيّ، عن كرم مفرط تجاه إسرائيل. دمّرت النتيجة غير المقصودة للتأثير المفرط للوبي أرجحيّة الاعتدال السياسيّ في إسرائيل وحوّلت سياسة الدولة اليهوديّة نحو الرفضيّة، ووضعت الختم النهائيّ على دمار مشروع حلّ الدولتين، كما أنّها جلبت فلسطينيّين عربًا أكثر

* محاضر في العلوم السياسية في جامعة بنسلفانيا، مختص في التاريخ السياسي الحديث والشرق الأوسط.

** جزء من الفصل الأخير في كتاب إيان لوستك، ويتناول فيه مآلات حل الدولتين في الواقع الراهن للقضية الفلسطينية:
Paradigm Lost: From Two-State Solution to One-State Reality. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2019

انجذب معظم المعارضين التقليديّين لحلّ الدولتين نحو سياسات «إدارة الصراع». تُسمّى هذه السياسة في اللّغة العسكريّة الإسرائيليّة «جزّ العشب». يُشير هذا التعبير إلى استخدام دائم لعمليّات عسكريّة كبيرة ولاستهداف لقياديّين ولتقييدات اقتصاديّة تؤدّي إلى تراجع البنى التحتيّة الاجتماعيّة والسياسيّة والعسكريّة الفلسطينيّة.

ممّا جلبت يهودًا إلى داخل نطاق سيطرة الدولة الإسرائيليّة.

كان مشروع «الحقّ الإسرائيليّ» ناجحًا بشكلٍ جزئيّ. أدى الدمج القسريّ للضفّة الغربيّة وقطاع غزّة إلى استحالة هندسة حلّ الدولتين، ولكنّ الفلسطينيّين لم يختفوا وما زالوا يقاومون، كما لم تتم إزالة مسألة مستقبل الفلسطينيّين من لبّ الإجماع الإسرائيليّ والسياسة الإسرائيليّة. إحدى عواقب هذا النجاح الجزئيّ، والتي تشمل الاعتماد على مخاوف اليهود الإسرائيليّين وكراهيتهم (وليس على التزاماتهم الايديولوجيّة) لمنع التسوية على الأراضي، كانت منع اليسار، واليمين كذلك، من حلّ هذا الصراع. بينما ما زالوا لا يملكون خطّة لتحقيق ذلك، ما زال المؤيّدون المحبَطون لحل الدولتين متمسّكين برؤيتهم للمستقبل. على نقيض ذلك، لا يملك معظم قياديّي الليكود وآخرون في المعسكر القوميّ حتّى هدفًا منشودًا واحدًا للمستقبل، فلا يمكنهم بالطبع وضع خطّة للوصول إلى هذا المستقبل.

بدلاً من ذلك، انجذب معظم المعارضين التقليديّين لحلّ الدولتين نحو سياسات «إدارة الصراع».[1] تُسمّى هذه السياسة في اللّغة العسكريّة الإسرائيليّة «جزّ العشب». يُشير هذا التعبير إلى استخدام دائم لعمليّات عسكريّة كبيرة ولاستهداف لقياديّين ولتقييدات اقتصاديّة تؤدّي إلى تراجع البنى التحتيّة الاجتماعيّة والسياسيّة والعسكريّة الفلسطينيّة. ليست هذه «بيداغوغيا عنيفة» بأسلوب الجدار الحديديّ، والذي تمّ تصميمه لينتج أعداء مطواعين يطمحون للسلام، بل هي وحشيّة ممنهجة تُستخدم ضدّ خصوم عنيدين لمنع التهديدات على الهيمنة الإسرائيليّة. يعتمد مؤيّدو إدارة الصراع على استمرار فاعليّة السلطة الفلسطينيّة ومساعدتها في الحفاظ على الأمن الحاليّ، كما ينصحون بتخفيف من طرف واحد لسيطرة إسرائيل على

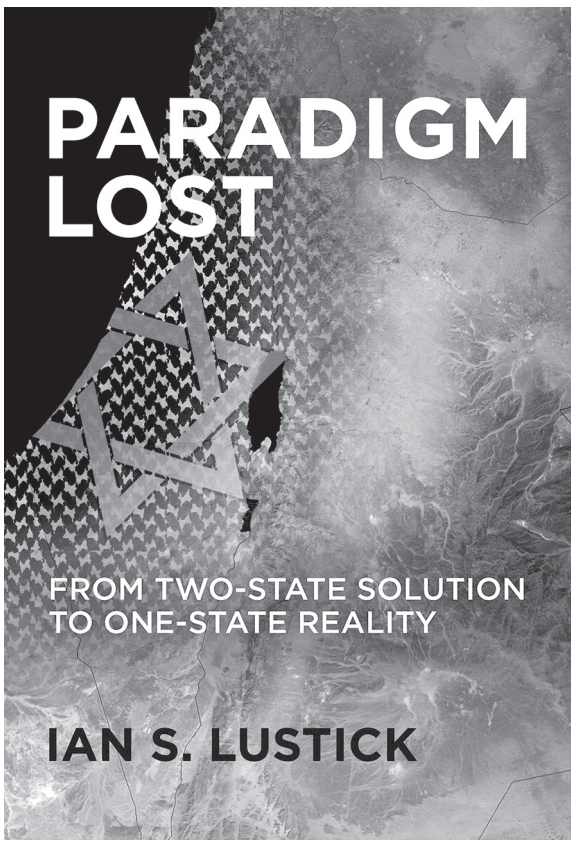

مناطق فلسطينيّة معيّنة ذات كثافة سكّانيّة عالية. من الناحية السياسيّة والدبلوماسيّة، فإنّ «إدارة الصراع» تعني:

- الحفاظ على تصوّر جماهيريّ عن الفلسطينيّين وحلفائهم بأنّهم إرهابيّون أو متطرّفون، وغير موثوق بهم ليكونوا شركاء للسلام؛
- تجنّب اتّخاذ تدابير قاطعة وواضحة من شأنها أن تغيّر أو توضّح مكانة المناطق المحتلّة؛

- الإعراب عن استعداد رسميّ لمتابعة مفاوضات حلّ الدولتين بينما يتم إحباطها بأفعال ومطالب تضمن فشلها؛
- تعويد اليهود الإسرائيليّين على وحشيّة العمليّات ضدّ العرب في لبنان وغزّة والضفّة الغربيّة؛
- تقليل تعبئة الفلسطينيّين وعنفهم من خلال سياسات السجن الجماعيّ ووضعهم في غيتوهات والسيطرة المشدّدة على حركتهم والعقاب الجماعيّ؛
- وضع تقييدات على السلطة الفلسطينيّة وحماس لإبقاء الانقسام الفلسطينيّ ولتعزيز الرقابة والسيطرة؛
- استخدام دعم أميركيّ غير مشروط للدفاع عن إسرائيل ضدّ الجهود العالميّة لتحويل إسرائيل إلى دولة منبوذة عالميًا.

تُبقي هذه السياسات المجموعة السكّانيّة الفلسطينيّة الآخذة في الازدياد تحت ضغط هائل. لا يهمّ عن أيّ منظومة سياسيّة نتحدّث، كلّما ازدادت فترة انقطاع مجموعة سكّانيّة وطالت فترة حرمانها من الملاءمات التي من شأنها أن تساهم في ارتفاع الاستقرار، كلّما زاد احتمال أن تنتج هذه «التقلّبات المحصورة» انفجارات لا يمكن إدارتها.[٢] إذًا، أدّى النجاح الجزئيّ للضمّ على أرض الواقع– والذي جعل من احتمال فصل إسرائيل عن المناطق المحتلّة أمرًا مستحيلاً، ولكنّه لم يقلّل من عدائيّة السكّان الفلسطينيّين في الضفّة– إلى العاقبة غير المقصودة المتمثّلة بحتميّة الحملات اللا–عنفيّة، والحملات شبه العنيفة، والمقاومة العنيفة.

سيكون ردّ الفعل الإسرائيليّ دمويًا ومدمّرًا، وسيؤدّي إلى عشرات آلاف المُصابين، إذ لمجرّد إحباط الاحتجاجات على طول السياج الذي يحيط بقطاع غزّة، قتل الجيش الإسرائيليّ ٢٧١ فلسطينيًا من غزّة وأطلق النار أو القنابل الغازيّة على أكثر من ٢٠،٠٠٠ فلسطينيّ في السنة التي ابتدأت بها أوّل مظاهرات «مسيرات العودة» في ٣٠ آذار ٢٠١٨,[٣] استخدمت إسرائيل هدم البيوت والترحيل والعقاب الجماعيّ والقصف الجويّ وهجمات الطائرات من دون طيّار والاغتيالات السريّة والاختطاف ضدّ العرب في الضفّة الغربيّة وفي غزّة أيضًا. كلّما ازداد منسوب العنف، كلّما ازدادت فرصة تصوير ردّ الفعل المتطرّف وغير المتناسب من الطرف الإسرائيليّ وبثّه إلى مليارات الأشخاص حول العالم.

في هذا السياق، من المرجّح أن يؤدّي فائض منسوب تفكير الهولوكوستيا في إسرائيل إلى عواقب غير مقصودة، بل وتهكّميّة، حيث يشهد اليهود الإسرائيليّون وسيشهدون معاناة وعقابًا يبدو لا نهائيًا لشعب ضعيف وجائع ولا دولة له. في حين أنّ المقصد كان ردّ الفعل القويّ على هذه المشاهد ومن منظور الهولوكوستيا، سيتماثل العديدون مع الضحايا الفلسطينيّين بدلاً من التماثل مع القامعين الإسرائيليّين. بهذه الطريقة، من المحتمل أن يحظى تفسير المحرقة كدرس حول موضوع حقوق الإنسان بشعبيّة بعد أن تمّ تهميشه سابقًا من خلال تفسير المحرقة كقالب للحياة اليهوديّة.

وصف المدافعون الغاضبون عن الهولوكوستيا استخدام الجرائم النازيّة كمعيار أخلاقيّ عند اعتبار إسرائيل على أنّها «انعكاس للمحرقة»، وشجبوا هذه المحاولة واصفين إيّاها أنّها لا–ساميّة وأنّها أكثر خطورة من إنكار المحرقة.[٤] صبّ هؤلاء المدافعون غضبهم بالأساس على الأوروبيّين والمسلمين الذين يقارنون بين إسرائيل وألمانيا النازيّة، ولكن، وبالذات بسبب سيطرة الهولوكوستيا على الإسرائيليّين، من المستحيل منعهم من القيام بالشيء نفسه. كان هناك مثال رائع على انعكاس المحرقة من هذا القبيل في مناسبة إحياء ذكرى المحرقة في عام ٢٠١٦، عندما حذّر يائير غولان؛ نائب رئيس هيئة الأركان الإسرائيليّ، أنّ قتل أسير فلسطينيّ أعزل على يد جنديّ إسرائيليّ والثناء الكبير على أعماله، يجب أن يؤدّي إلى أن تتذكّر الأمّة أهم دروس المحرقة:

إذا كان هناك أمر يخيفني من ذكرى المحرقة، فإنّه رؤية الصيرورات البغيضة التي حدثت في أوروبا، وخصوصًا في ألمانيا، قبل سبعين أو ثمانين أو تسعين عامًا، ورؤية مظاهر هذه الصيرورات هنا، بيننا، في العام ٢٠١٦.[٥]

على الرغم من استنكار رئيس الوزراء ووزيريْ التعليم والثقافة هذه الأقوال، إلا أنّ تصريح غولان يوضّح أنّ السيطرة الدائمة لقالب الهولوكوستيا على الثقافة السياسيّة الإسرائيليّة هي أمر غير مضمون.[٦]

بالنظر إلى كثافة الارتباطات التي تتشعّب إلى المحرقة وتملأ الأذهان والقلوب الإسرائيليّة، فإن بروز هذا النوع من المقارنة سيزداد حتمًا. بدلاً من تنمية الخوف والشكوك والكراهيّة، بإمكان ذاكرة المحرقة، كدرس أخلاقيّ، أن تؤدّي إلى اعتراف اليهود الإسرائيليّين بمعاناة الفلسطينيّين، وحتّى إلى التماثل

تتمثّل إحدى نتائج ترنّح اليمين في الحياة الإسرائيليّة وانهيار حلّ الدولتين- وكلاهما مرتبطان بسياسات الولايات المتّحدة التي يقود اللوبي إليها- بالضرر الذي حلّ بالحلف التقليديّ بين إسرائيل والليبراليّين الأميركيين، وبين قطاعات كبيرة في الحزب الديمقراطيّ، وبين أعداد آخذة بالازدياد من الأميركيين اليهود.

معهم. يرفض الكثير من اليهود الإسرائيليّين الأعمال التي تُنفّذ ضدّ الفلسطينيّين، ولا يسعهم إلّا أن يربطوا هذه الأعمال مع اضّطهاد النازيّين لليهود، وسيميلون حتمًا إلى اعتبار النضالات من أجل حماية حقوق الفلسطينيّين كنضالات شريفة وأخلاقيّة، بل بطوليّة.[٧] كتب الصحافيّ الإسرائيليّ الشهير، آري شافيط، أنّه عندما كان جندي احتياط شابًا يحرس أسرى فلسطينيّين في غزّة خلال فترة الانتفاضة الأولى، لم يسعه إلّا أن يرى الأسرى يهودًا، وأن يرى نفسه وباقي الجنود ألمانًا.[٨] تستحضر صورة جنود يقفون على حاجز ويرغمون عربيّ على عزف آلة الكمان صورًا أُرغموا على تسلية حرّاس معسكرات التركيز. وتستحضر الحالات التي يُجبِر فيها الجنود الإسرائيليّون العرب على أكل التراب أو ضرب أنفسهم أو غناء أغاني مديح لوحدات الجيش الإسرائيليّ، حتمًا ذكريات عن اليهود الذين أُجبروا على إهانة أنفسهم على مرأى النازيّين الساخرين منهم. ويشبه الفلسطينيّون «الإرهابيّون» من غزّة الذين يُلقى القبض عليهم أو يُقتلون في الأنفاق المحفورة تحت الأرض «قطّاع الطرق» اليهود الذين سحبهم الجنود النازيّون من أنابيب الصرف الصحّيّ الخارجة من غيتو وارسو. كما يُذكّرنا استخدام إسرائيل للسلطات الفلسطينيّة في غزّة من أجل توزيع كمّيات محدودة من الكهرباء والغذاء المسموح بإدخالها إلى القطاع باستخدام الألمان للـ«يودنراتي» (المجالس اليهوديّة) من أجل توزيع الغذاء والعمل في الغيتوهات. تُقلّد شعارات مثل «العرب برّا» و«الموت للعرب» التي تُخربش على الجدران أو يتم ترديدها في المظاهرات والمناسبات الرياضيّة شعارات نازيّة وسلوكًا ألمانيًّا عند الأذهان التي تتناغم مع الهولوكوستيا. يؤدّي العنف والملاحقة الأمنيّة المُمارسين ضدّ العرب وضدّ اليهود الذين يتم اعتبارهم متعاطفين مع العرب من قِبَل منظّمات مثل «تدفيع الثمن»، و«لا فاميليا»؛ نادي داعمي فريق كرة القدم «بيتار» الذي يتفاخر بعنصريّته، وحركة «لهافاه» (شعلة) التي تميل للتخوين بناء على العرق، حتمًا إلى استحضار صور الاضطهاد النازيّ لليهود في سنوات جمهوريّة فايمار الأخيرة.[٩]

قد تؤدّي العاقبة غير المقصودة المتمثّلة بالنجاح الباهر للوبي إسرائيل إلى خلق احتمال لتغيير دراماتيكيّ. الإحكام الشديد الذي يتمتّع به اللوبي على السياسات الأميركيّة شلّ المعتدلين الإسرائيليّين، وسرّع الضمّ الفعليّ، وحوّل عمليّة السلام إلى فشل متكرّر. تمحورت المبادرات الأميركيّة منذ فترة جيمي كارتر وحتّى باراك أوباما حول أربع مراحل: حثّ إسرائيل قليلاً على التسوية، تجنيد اللوبي ضدّ الضغط الأميركيّ على إسرائيل، انهيار عمليّة السلام، وتوسيع الضمانات والدعم الأميركي. بهذه الطريقة، أنتجت كلّ دورة تحدّيات أكثر أمام نجاح المبادرات المستقبليّة.[١٠]

تتمثّل إحدى نتائج ترنّح اليمين في الحياة الإسرائيليّة وانهيار حلّ الدولتين– وكلاهما مرتبطان بسياسات الولايات المتّحدة التي يقود اللوبي إليها– بالضرر الذي حلّ بالحلف التقليديّ بين إسرائيل والليبراليّين الأميركيين، وبين قطاعات كبيرة في الحزب الديمقراطيّ، وبين أعداد آخذة بالازدياد من الأميركيين اليهود، وخصوصًا الشباب اليهود غير الأرثوذكسيّين. الغالبيّة الساحقة من اليهود الأميركيين غاضبة من الرئيس ترامب، ويعتبرونه شخصيّة مخيفة وتهديدا مثيرا للغضب. مع ذلك، في شهر تشرين الأوّل ٢٠١٨، حصل ترامب على نسبة تأييد ٦٩ بالمئة بين الإسرائيليّين. في كانون الأوّل ٢٠١٨، قال إيريك غولدستين؛ رئيس الفدراليّة اليهوديّة للرفاه في نيويورك، لوزارة شؤون الشتات الإسرائيليّة، إنّ متبرّعين

خطط اليمين لمستقبل إيجابيّ هي خطط غير واقعيّة، إن لم تكن خياليّة. تشمل هذه الخطط تحويل الفلسطينيّين في الضفّة الغربيّة إلى مغتربين أردنيّين يعيشون في إسرائيل، وإرغام مصر على تحمّل مسؤوليّة حكم غزّة ونقل لاجئي غزّة إلى سيناء، وضمّ المناطق المأهولة بشكلٍ ضئيل في الضفّة الغربيّة ومنح سكّانها جنسيّة إسرائيليّة، ومنح العرب في معظم المدن والبلدات حكمًا ذاتيًا مؤقّتًا.

سابقين يقولون إنّهم «يشعرون بالغثيان» عندما يفكّرون بالسياسات الوحشيّة التي تطبّقها إسرائيل ضدّ المهاجرين وضدّ الفلسطينيّين، وأنّ «المتبرّعون يبلغون الفدراليّة يوميًا أنّهم لا يريدون أن يتم استثمار أموالهم في إسرائيل».[11]

لم يكن لشعار إنهاء «الاحتلال» صدى واسعًا أبدًا عند الأميركيين الذين يربطون هذا المصطلح بالاحتلالات المُسالة والديمقراطيّة في ألمانيا واليابان ما بعد الحرب. ولكن، يعتبر معظم الأميركيين المساواة في الحقوق للجميع حقيقة بديهيّة. هذا سيساعد الحملات التي تسعى إلى دعم أميركي لدمقرطة إسرائيل من خلال منح الحقوق لكلّ مواطنيها غير اليهود. لقد أدّى تعاطف أجزاء من الأميركيين التقدّميّين مع حركة مقاطعة إسرائيل وسحب الاستثمارات منها (BDS)، والتي تعتبر المساواة السياسيّة للعرب في إسرائيل أحد مطالبها الأساسيّة، إلى تغيير في مواقف المرشّحين المتنافسين على ترشيح الحزب الديمقراطيّ للرئاسة.[12] عندما يستعيد الليبراليّون والحزب الديمقراطيّ الحكم في واشنطن، من المرجّح أن تبدأ سياسية الولايات المتّحدة تجاه إسرائيل بالتحوّل، من تحمّل الوضع القائم المموّه بالثرثرة الدبلوماسيّة عن حلّ الدولتين، إلى تطبيق القيم الأميركية التقليديّة، ويشمل ذلك المبدأ الديمقراطيّ الأساسيّ؛ شخص واحد، صوت واحد. بسبب اعتماد اللوبي بشدّة على الإنجيليّين اليمينيّين، وعلى التأثير الداخليّ لمُشغّلي اللوبي الأذكياء، وعلى المتبرّعين الأثرياء جدًا، وبسبب ابتعاده بشكلٍ كبير عن مخاوف جمهور الناخبين الكبير، من الممكن أن ينخفض تأثير اللوبي على الحكومة الأميركية بشكلٍ حادّ. عند اعتراف واشنطن ونخبة الخبراء السياسيّين باستحالة الانفصال من خلال المفاوضات ما بين إسرائيل والفلسطينيّين، سيتحوّل الانتباه، كما تحوّل بالفعل حتّى الآن بعدّة مستويات، لسلوك إسرائيل تّجاه العرب الذين تحكمهم، ولحرمانهم من حقوقهم المدنيّة والسياسيّة.[13]

إذا نظرنا نظرة بعيدة المدى للمشكلة واستغلّينا العواقب غير المقصودة للمشاريع التي تمّ تصميمها لأهداف أخرى، سيكون من الممكن إعادة الطمأنينة لمن يكافح من أجل تحسين ظروف كلّ من يعيش فيما يسمّيه البعض فلسطين، ويسمّيه الآخرون أرض إسرائيل. من المؤكّد أنّه يمكن القيام بالكثير وتعلّم الكثير، بما في ذلك تعلّم طريقة تفكير المستوطنين وداعمين آخرين لحكم إسرائيل على الأراضي المحتلّة، لأنّهم يشعرون بالقلق حيال المستقبل، تمامًا كما يقلق التقدّميّون حياله. حتّى إذا لم تتّفق المجموعات على الهدف النهائيّ، يمكنها العمل معًا لتحصيل أهداف متداخلة على الأقل، أو لتحصيل أهداف مشتركة على المدى القريب. على سبيل المثال، يرغب معظم داعمي الضمّ اليمينيّين تجنّب وصمة عار الأبارتهايد، ويرغبون بأن يتم اعتبارهم كمن يحترم، على الأقل، المبادئ الديمقراطيّة. يتيح تصديق سياسيّي اليمين على مبادئ المساواة والديمقراطيّة علنًا فرصة لتحويل الخطاب السياسيّ الإسرائيليّ. لا شكّ في أنّه لا يوجد أيّ اختلاف بين معظم ما يقوله أنصار اليمين عن المستقبل، وبين إعلان الولاء الذي صرّح به رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو لحلّ الدولتين في عام ٢٠٠٩. معظم ما يقوله داعمو الضمّ عن الديمقراطيّة هو مزدوج المعايير. ولكن، وفي حين يؤجّل الدعم المخادع لحلّ الدولتين التعبئة من أجل الديمقراطيّة من خلال جعلها تبدو كأمر يقوّض احتماليّة السلام، فإن الدعم المخادع للديمقراطيّة لتبرير الضمّ يفتح الباب أمام اليهود والعرب للمطالبة بالمساواة، من خلال تحويل الدولة

الواحدة التي يقطنون بها لدولة يتم تطبيق القوانين نفسها على جميع من فيها.

بالتالي، من المهم ملاحظة كيف أنّ خطط اليمين لمستقبل إيجابيّ هي خطط غير واقعيّة، إن لم تكن خياليّة. تشمل هذه الخطط تحويل الفلسطينيّين في الضفّة الغربيّة إلى مغتربين أردنيّين يعيشون في إسرائيل، وإرغام مصر على تحمّل مسؤوليّة حكم غزّة ونقل لاجئي غزّة إلى سيناء، وضمّ المناطق المأهولة بشكلٍ ضئيل في الضفّة الغربيّة ومنح سكّانها جنسيّة إسرائيليّة، ومنح العرب في معظم المدن والبلدات حكمًا ذاتيًا مؤقّتًا، أو تغيير المدن الفلسطينية في الضفّة الغربيّة وفي غزّة إلى إمارات قبليّة تتمتّع بحكم ذاتيّ ولكنّها ليست مستقلّة، بينما يتم ضمّ المناطق الريفيّة بشكلٍ رسميّ.[١٤] عادةً، تشترط الملاحق التي تُرفق إلى مقترحاتهم المواطنة بمرور سنوات من السلوك الجيّد من طرف العرب، وقسم الولاء، و/أو معرفة اللّغة العبريّة، باستثناء بعض الحالات بناءً على وجهات النظر السياسيّة ووضع اللاجئين أو النشاط السياسيّ في الماضي.

بحسب هذه المقترحات، تحمي الإمكانيّة النظريّة لوجود سُبل قانونيّة للمواطنة الكاملة للعرب من ترتيبات هيمنة تشبه الأبارتهايد، كما تحمي من النقد الدوليّ، بينما تُلمّح للإسرائيليّين القلقين أنّه لن تكون معظم مناطق الضفّة الغربيّة وغزّة مؤهّلة أبدًا لأن تحظى بهذه المكانة. ولكن، يخلق اعتماد اليمين على الشروط فرصًا في حلّ الدولة الواحدة بمجرّد وضع حلّ الدولتين جانبًا. في حال تطبيقها، سينتج الضمّ، أو تطبيق القانون الإسرائيليّ، مهما كان مشروطًا أو محدودًا، عواقب غير مقصودة وغير متخيّلة. على سبيل المثال، عندما أصدر الرئيس لينكولن إعلان تحرير العبيد في ١ كانون الثاني ١٨٦٣، كذّبت شروط هذا الإعلان عظمة عنوانه، حيث أنّه حرّر فقط العبيد الذين يعيشون في مناطق معيّنة كانت ما زالت تقع تحت حكم الكونفدراليّة، وحتّى أنّ العبيد الذين تأثّرت مكانتهم من الإعلان لم يُمنحوا مواطنة، وإنّما تمتّعوا فقط بنهاية عبوديّتهم. تطلّب جعل معظم العبيد السابقين مواطنين إجراء تعديل دستوريّ، ومرّت عقود من النضال ضدّ قوانين جيم كرو قبل أن يتمتّع بعض المواطنين السود (وليس كلّهم) بالحق في التصويت. في النُظم الديمقراطيّة، يكون قوس التاريخ طويلًا، ويميل هذا القوس للانحناء من أجل دمج المجموعات السكّانيّة التي كانت مكروهة ومُستبعَدة في السابق.

بالفعل، يفضّل العديد من اليمينيّين عدم التحدّث عن المستقبل، آملين أن تختفي مشكلة العرب، دون أن يعلموا أو أن يرغبوا بالتعبير عن طريقة زوال هذه المشكلة. ولكن، ميّزت تسيبي حوطوفيلي، وهي قائدة من قيادات هذا المعسكر، الديناميكيّة السياسيّة لحكم الدولة الواحدة، وشدّدت على أنّه إذا لم يقترح «المعسكر القوميّ» واليمين المتديّن خططًا حقيقيّة للمستقبل وحلولاً عمليّة للمشكلة العربيّة، عندها سيتحكّم اليسار وحلفاؤه من وسائل الإعلام بشكلٍ مطلق في الخطاب العام الإسرائيليّ.[١٥] بالتالي، قدّم بعض اليمينيّين، بالإضافة إلى الرئيس ريفلين، مقترحات صادقة لضمّ كلّ المناطق الفلسطينيّة مع ضمان المواطنة لكلّ السكّان العرب. أحيانًا، يتم تقديم هذه الأفكار على أنّها إملاءات دينيّة أو أخلاقيّة. ولكن يدّعي مؤيّدون آخرون لهذه الفكرة أنّه لا يمكن دمج هذه الأجزاء من أرض إسرائيل بشكلٍ كامل إلّا إذا تمّ دمج سكّانها بشكلٍ كاملٍ أيضًا، ويعبّرون عن إيمانهم بأنّ الشعب اليهوديّ سينتصر بالمنافسة الديمغرافيّة من خلال التكاثر الطبيعيّ أو من خلال الهجرة إلى إسرائيل.[١٦]

لنتطرّق إلى مقترح أوري إليتسور، وهو مؤسِّس الحركة اليهوديّة المتزمّتة «غوش إيمونيم»، وناشط وقائد في أحزاب اليمين المتطرّف المتديّن، وصديق حميم لرئيس الوزراء نتنياهو. نشر إليتسور في إطار ندوة عن حلول لمسألة العرب في يهودا والسامرة وغزّة مقالاً مفصّلاً أصرّ فيه على أنّه يجب كسر «تابو» النقاش حول الحلّ الحقيقيّ الوحيد لهذه المسألة؛ أي الضمّ، مع منح مواطنة كاملة للسكّان العرب. في اقتراحه، تطلّع إليتسور ثلاثين عامًا إلى الأمام، وادّعى أنّ البديل الوحيد هو حلّ الدولتين، والذي سيعني حتمًا انقسامًا لا يمكن إصلاحه بين أبناء الشعب اليهوديّ، واستمرار سفك الدماء والوضع الراهن، والذي إذا استمر كترتيب دائم سيتحوّل إلى أبارتهايد. لقد رفض إليتسور صيغًا مختلفة شائعة في اليمين، كالحكم الذاتيّ الإداريّ، وحق العرب في المشاركة في الانتخابات الأردنيّة، وإنشاء الكانتونات، والإيهام، إلى الأزل، أنّ الوضع القائم مؤقّت فقط، واعتبرها محاولات لتمويه حقيقة وجود أعداد كبيرة من الأشخاص الذين يعيشون تحت الحكم الإسرائيليّ ولكن من دون مواطنة، ستبوء بالفشل حتمًا. كتب إليتسور: «سيكون مصير دولة الأبارتهايد هذه كمصير جنوب أفريقيا».[١٧]

بعد مرور عام، تبنّى كلّ من حوطوفيلي، ووزير الدفاع السابق موشيه آرينس، والحاخام حنان بورات؛ أشهر مؤسّسي

«غوش إيمونيم»، فكرة «الضمّ مع مواطنة»، على الرغم من أنّهم شدّدوا على أنّه سيتطلّب مرور جيل من الزمن لتطبيقها. على الرغم من أنّ حوطوفيلي كانت تقصد الضفّة الغربيّة فقط، كان مستقبل غزّة في بالها أيضًا. قالت حوطوفيلي إنّه بإمكان إسرائيل أن تتّبع إجراءات أكثر قساوة في غزّة بعد الضمّ من الإجراءات التي يمكن أن يتحمّلها المجتمع الدوليّ طالما كان يعتبر إسرائيل دولة محتلّة وليس سلطة دوليّة شرعيّة.[18]

يعتبر معسكر الضمّ، وكذلك التقدّميّون الذين يقبلون حكم الدولة الواحدة، كلّ الأرض كحيّز واحد، حتّى إذا لم يتّفقوا أيّ طابع يجب أن يسود في هذا الحيّز، «اليهوديّ» أم «الديمقراطيّ»؟ إذا كان هذا الحيّز حيّزًا واحدًا، فلدى اليمين ادّعاء قويّ بأنّه من النفاق أن يتعامل اليسار المُسالم مع إسرائيل التي داخل الخطّ الأخضر كأمر شرعيّ، بينما يتعامل معها خارج الخطّ الأخضر على أنّها غير شرعيّة. فمثلاً، إذا كان الضمّ والطرد الجماعيّ للعرب ومصادرة الأراضي بالجملة والمستوطنات اليهوديّة في المناطق العربيّة لضمان حكم إسرائيل على المناطق التي تمّت السيطرة عليها في عام ١٩٤٨ هي جميعها أمر شرعي، فإذًا المستوطنات واستيعاب الضفّة الغربيّة وغزّة، بإجراءات أقلّ قساوة، يمكن اعتبارها أيضًا أمرًا شرعيًا.[19] إذا تصالح داعمو حلّ الدولتين مع هذه النقطة المتعارضة، سيُجبر اليمينيّون على تقبّل حقيقة أنّه مثلما تضخّمت الأقليّة العربيّة الضعيفة في سنوات الخمسينيات لتصبح كبيرة ولديها قوّة مؤثّرة في السياسة الإسرائيليّة اليوم، ستفشل في نهاية الأمر أيضًا أيّ منظومة تقييدات على الحريّات الديمقراطيّة داخل كيان سياسيّ مُتضخِّم ويصف نفسه بأنّه الديمقراطيّ.

من غير المتوقّع الإدلاء بتصريح مشابه، ولكن الأمور تسير نحو ضمّ على نطاق واسع. يعتقد داعمو الضمّ أنّ زيادة حواليّ ٥ ملايين عربيّ لن تغيّر الدولة بشكلٍ أساسيّ. هذه الزيادة ستغيّر الدولة. على الرغم من أنّ الضمّ لن يمنح مواطنة متساوية لمعظم السكّان العرب بشكلٍ سريع، لكنّه سيخلقّ حلبة سياسيّة تطرح فرصًا عدّة. سيحوّل الضمّ السياسة من صراع مجموع صفريّ ما بين اليهود الإسرائيليّين والعرب الفلسطينيّين، إلى منافسة مركّبة أكثر بين مختلف المجموعات الفلسطينيّة واليهوديّة التي تبحث عن حلفاء سياسيّين، وعن الحكم داخل وعبر حدود مجتمعاتهم القوميّة.

سيستغرق توسيع المواطنة وحقّ التصويت للجميع عقودًا من الصراع. على الرغم من ذلك، إذا وضعنا جانبًا احتماليّة وقوع حرب كارثيّة لإنتاج مخرجات شديدة الاختلاف، ستحدث دمقرطة الدولة ذات يوم دون شك، وخصوصًا لأنّ أعدادًا كبيرة من اليهود ستجد أنّه من مصلحتها أن تنضمّ للعرب في صراعها من أجل حقّ التصويت للبالغين. ستواجه الحكومات المختلطة التي ستنشأ من مواطنة ملايين اليهود وملايين العرب وعشرات آلاف غير اليهود وغير العرب، والمقسّمة لفصائل دينيّة وغير دينيّة وأيديولوجيّة ومناطقيّة واقتصاديّة تحدّيات عظيمة، ولكن، بمساعدة الدعم الحماسيّ المحتمل من المجتمع الدوليّ، ستكون هناك طرق جديدة للمضيّ قدمًا. على المستوى التكتيكيّ، تحتّم الضرورة الحاليّة تركيز التحليل والعمل على فرص عينيّة من شأنها أن تدعم المساواة وأن تقلّل أو أن تقضي على العنصريّة، ممّا يعني عدم معارضة الضمّ بحدّ ذاته وإنّما تصميم الضمّ. يعني هذا التعامل مع العرب واليهود وكأنّهم يتمتّعون بحقوق سياسيّة متساوية دون التطرّق إلى مكان سكناهم نسبةً إلى الخطّ الأخضر. كما أنّ ذلك يعني استبدال النداءات التي تعكس المخاوف الديمغرافيّة اليهوديّة بتشجيع التحالفات الفلسطينيّة–اليهوديّة، يشمل ذلك دمج الجمهور المقدسيّ في صراع السيطرة على بلديّة القدس. بشكلٍ عام، يعني هذا بناء قدرات طويلة المدى لصراع مشترك بدلاً من الشعور بالأسى حول كيفيّة إعادة إطلاق عمليّة السلام، أو حول مسألة اندثار حلّ الدولتين أم لا.

من المبكر التحدّث عن حلّ الدولة الواحدة كحلّ بدلاً من التحدّث عنها كواقع ديناميكيّ وصعب. لقد حان الوقت لتبديل المشاكل المتقيّحة للهيمنة المنهجة ولكن غير المعترف بها، بمشاكل مرتبطة بتعلّم كيفيّة العيش مع الآخرين كمتساوين. في نهاية المطاف، سيتمكّن القياديّون الإسرائيليّون والفلسطينيّون والأميركيون والأوروبيّون من خلق حياة جديدة في هذه الأرض التي طالما طاردها الموت وانعدام الأمل، فقط من خلال التفكير بجدّية حول كيفيّة احترام المبادئ الديمقراطيّة والشرعيّة المتساوية لطموحات اليهود والفلسطينيّين معًا.

(ترجمته من الإنجليزية: منى أبو بكر)

الهوامش

١. .لأمثلة صريحة وضمنيّة على هذا المنهج، أنظر إفرايم عنبار وإيتان شامير، «جزّ العشب»: إستراتيجيّة إسرائيل لصراع طويل الأمد ومستعص»، *Journal of Strategic Studies* 37، رقم ١ (٢٠١٤): ٦٥-٩٠؛ ميخا غودمان، مصيدة ٦٧ [عبري] (حيفيل موديعين كينيرت، زموراه بيتان، ٢٠١٧)؛ نوعام شيزاف، «دولة واحد أم اثنتان؟ الوضع الراهن هو خيار إسرائيل العقلانيّ»، مجلّة ٩٧٢+، ٢٥ آذار، ٢٠١٢، http://972mag.com/one-or-two-states-the-status-quo-is-israels-rational-third-choice/39169/.

٢. للاطّلاع على النقطة العامّة، انظر، نسيم نيكولاس طالب ومارك بلايث، «بجعة القاهرة السوداء: كيف يجعل قمع التقلّبات العالم أقلّ قبولا للتنبّؤ وأكثر خطورةً؟»، *Foreign Affairs* 90، رقم ٣ (أيّار-حزيران ٢٠١١): ٣٣-٣٩.

٣. «لقطة إنسانيّة: الإصابات في قطاع غزّة؛ ٣٠ آذار ٢٠١٨-٢٢ آذار ٢٠١٩»، مكتب الأمم المتّحدة لتنسيق الشؤون الإنسانيّة، الأرض الفلسطينيّة المحتلّة، ٢٧ آذار، ٢٠١٩، http://www.ochopt.org/content/humanitarian-snapshot-casualties-gaza-strip-30-mar-2018-22-mar-2019.

٤. على سبيل المثال، أنظر آلان جونسون، «لماذا يعتبر تماثل النازيّة وانعكاس المحرقة أمرًا لا-ساميًّا»، Fathom، آب ٢٠١٨، http://fathomjournal.org/why-the-nazi-analogy-and-holocaust-inversion-are-antisemetic/؛ وليسلي كلاف، «انعكاس المحرقة»، *Israel Studies 24*، رقم ٢، (صيف ٢٠١٩) ٧٣-٩٠.

٥. «خطاب نائب رئيس هيئة أركان جيش الدفاع الإسرائيليّ في يوم ذكرى المحرقة يثير السخط»، *Ynetnews*، ٥ أيّار، ٢٠١٦، http://www.ynetnews.com/articles/0,7340,L-4795959,00.html.

٦. «خطاب نائب رئيس هيئة أركان جيش الدفاع الإسرائيليّ ...»

٧. للاطّلاع على مثال مبكر لهذا التأثير، انظر أفراهام بورغ، هزيمة هتلر [عبري] (تل أبيب: يديعوت أحرونوت، ٢٠٠٧). انظر أيضًا مقابلة آري شافيط مع بورغ، «ترك الغيتو الصهيونيّ»، هآريتس، ٨ حزيران، ٢٠٠٧. الفيلم الإسرائيليّ فالس مع بشير (٢٠٠٨) الحائز على عدة جوائز مشبع بمجاز عن المحرقة ويربط السلوك الإسرائيليّ تجاه الفلسطينيّين في حرب لبنان ١٩٨٢ بالمعاملة الوحشيّة التي تلقّاها اليهود من قِبَل الألمان خلال الحرب العالميّة الثانية.

٨. آري شافيط، «على شاطئ غزّة»، *New York Review of Books*، ١٨ تمّوز، ١٩٩١.

٩. للاطّلاع على أمثلة مقارنة بين فايمار وإسرائيل، أنظر بورغ، هزيمة هتلر، ص. ٩٦-١١٣؛ أوري أفنيري، «يمكن مقارنة السياسة الإسرائيليّة مع نهاية فايمار الألمانيّة وصعود الفاشيّة»، *Irish Times*، ٢٥ أيّار، ٢٠١٦،

http://www.irishtimes.com/opinion/uri-avnery-israeli-politics-bears-comparison-with-end-of-weimar-germany-and-rise-of-fascism-1.2659314؛ موشيه تسيميرمان، «فايمار في القدس: هل إسرائيل منحدر زلق للفاشيّة؟»، Tel Aviv Review (بودكاست، ١٢ شباط، ٢٠١٦)، http://tlv.fm/the-tel-aviv-review/2016/02/12/weimar-in-jerusalem-is-israel-on-a-slippery-slope-to-fascism/؛ مردخاي كرمنيتسر، «التملّص من تهمة القتل في عمليّة إماتة الفلسطينيّين، إسرائيل تفشل في منع قدوم الإرهابيّ اليهوديّ التالي»، هآرتس، ٢٥ كانون الأوّل، ٢٠١٩. للاطّلاع على ردود نقديّة على هذه الميول الذي ما زال يتقبّل المقارنة، انظر غيليو ميوتي، «دولة تل أبيب – فايمار إسرائيل؟»، عروتس شيفاع، ٨ تمّوز، ٢٠١٢، http://www.israelnationalnews.com/Articles/Articles.aspx/12023. للمقارنة بين النكبة والمحرقة، انظر بشير بشير وعاموس غولدبيرغ، محرّران. المحرقة والنكبة: ذاكرة، هويّة قوميّة والشراكة اليهوديّة-العربيّة [عبري] (تل أبيب: هكيبوتس همؤوحاد، ٢٠١٥). للاطّلاع على سلوك وعنف مشجّعي فريق كرة القدم بيتار القدس ضدّ العرب، أنظر نقيّ للأبد (٢٠١٦)، إخراج مايا زينشطاين.

١٠. انظر رشيد خالدي، سماسرة الخداع: كيف قوّضت الولايات المتّحدة السلام في الشرق الأوسط (بوسطن: بيكون، ٢٠١٣)؛ انظر أيضًا إيان س. لوستيك، «توجّهات جديدة للسلام الإسرائيليّ-فلسطينيّ: هل يمكن للقوى الإقليميّة إحداث تغيير؟»، *Middle East Policy* 24، رقم ٢ (صيف، ٢٠١٧): ٩-١٧؛ إيان س. لوستيك، «من العمليّة إلى الباثولوجيا: لوبي إسرائيل وفشل الدبلوماسيّة» (قريبًا، متوفّر في www.ParadigmLostbook.com).

١١. يانير كوزين، «يقول اليهود في الولايات المتّحدة إنّ السياسات الإسرائيليّة تجعلهم يشعرون بالغثيان»، معاريف، ١٨ كانون الأوّل، ٢٠١٨، http://www.maariv.co.il/news/world/Article-675940. لنقاش عن الرابط ما بين الاستقطاب الحزبيّ في الولايات المتّحدة وإمكانيّات التغيير في سياسة الولايات المتّحدة بشأن التمييز داخل إسرائيل الدولة الواحدة، انظر بين وايت، شقوق في الجدار: ما بعد الأبارتهايد في فلسطين/إسرائيل (لندن: بلوتو، ٢٠١٨).

١٢. ناثان ثرال، كيف تؤدّي المعركة حول إسرائيل واللا-ساميّة إلى تصدّع السياسة الأميركيّة؟»، *New York Time Magazine*، ٢٨ آذار، ٢٠١٩، http://www.nytimes.com/2019/03/28/magazine/battle-over-bds-israel-palestinians-antisemitism.html.

١٣. لأمثلة عن هذا التحوّل، انظر التغطية المُفصّلة بصورة استثنائيّة التي منحتها نيويورك تايمز لموت المُسعفة الغزيّة على يد قنّاص إسرائيليّ. دافيد م. هالبفينغر، «يوم، حياة: عندما قُتلت مُسعفة في غزّة، هل كان هذا حادثًا؟»، New York Times، ٣٠ كانون الأوّل، ٢٠١٨. انظر أيضًا مقال ميشيل ألكساندر في يوم ذكرى مارتن لوثر كينغ، «حان وقت كسر صمت الفلسطينيّين»، *New York Times*، ١٩ كانون الأوّل، ٢٠١٩.

١٤. انظر، مثلاً، يشاي فلايشر، «نظرة مستوطن حول مستقبل إسرائيل»، *New York Times*، ١٤ شباط، ٢٠١٧؛ كارولينا لاندسمان، «كيف يتصوّر مفكّرو اليمين الإسرائيليّون ضمّ الضفّة الغربيّة»، هآرتس، ١٨ آب، ٢٠١٨؛ كارولين غليك، الحلّ الإسرائيليّ (نيويورك: كراون فوروم، ٢٠١٤). للاطّلاع على تفاصيل خطط من هذا القبيل طرحتها قيادة المستوطنين وسياسيّون مؤثّرون مثل أوري آريئيل، عادي ماينز، نفتالي بينيت وآخرون، انظر مغامرة بالإيمان: الصراع القوميّ-الدينيّ والإسرائيليّ-الفلسطينيّ في إسرائيل، تقرير الشرق الأوسط رقم ٤٧ (بروكسل: مجموعة الأزمة الدوليّة، ٢١ تشرين الثاني، ٢٠١٣)، ص ٣٣-٣٧.

١٥. عند كتابة هذه السطور، كانت حوطوفيلي تشغل منصب نائبة وزير الخارجيّة. صوفيا رون-موراياه، «تكتيك خطير» [عبري]، مقابلة مطوّلة مع تسيبي حوطوفيلي، نيكودا، رقم ٣٢٣ (تمّوز ٢٠١٩): ٣٣-٣٥.

١٦. نوعام شيزاف، «المرحلة النهائيّة»، هآرتس، ١٥ تمّوز، ٢٠١٠، http://haaretz.com/1.5149140. للاطّلاع على مقترح يعتمد على الشريعة اليهوديّة كتبها حاخام يعيش في الضفّة الغربيّة، والذي يتناول موضوع المواطنة المتساوية لكلّ اليهود والعرب في دولة إسرائيليّة تشمل كلّ المنطقة الواقعة ما بين البحر والنهر، انظر راف غليكمان، مبادئ مقترحة لخطّة سلام في أرض إسرائيل [عبري] (شيلو: ميميو، ٢٠٠٥). الاستعداد لقبول مجموعات سكّانيّة فلسطينيّة كبيرة داخل الدولة هو بحدّ ذاته العاقبة غير المقصودة لسنوات من الدعاية اليمينيّة التي غرست معتقدًا زائفًا بشأن قلّة عدد الفلسطينيّين الذين يعيشون في الضفّة الغربيّة. إلحانان ميلر، «يدّعي الخبراء أنّ معطيات ديمغرافيّة خاطئة تغذّي دافع اليمين للضمّ» *Times of Israel*، ٥ كانون الثاني، ٢٠١٥. لدى أقلّ من ١٥ بالمئة من الإسرائيليّين اليهود الذين يعرّفون أنفسهم أنّهم يمينيّون معتقدات دقيقة حول هذا الموضوع. انظر مؤشّر السلام، حزيران ٢٠١٦، http://peaceindex.org/files/peace_index_Data_June_2016-Eng.pdf.

١٧. أوري إليتسور، «كسر التابو» [عبري]، نيكودا، رقم ٣٢٣ (تمّوز ٢٠١٩): ٣٧.

١٨. شيزاف، «نهاية المرحلة». بيني بيغين ودان مريدور، الشخصيّتان البارزتان في الليكود ووزيران سابقان، دعما أيضًا منح حقوق متساوية للعرب في إسرائيل الموسّعة.

١٩. أنظر إيان س. لوستيك، «فهم النكبة: آري شافيط، باروخ مارزل، والمطالب الصهيونيّة للأرض»، *Journal of Palestine Studies 44*، رقم ٢ (شتاء ٢٠١٥): ٧-٢٧.